النشـــــــــرة

تصـــدرها مطـــرانية الـــروم الأرثوذكـــس في بـــيروت

العدد ٤٨ / ١٩٩٩

الأحد ٢٨ تشرين الثاني

الشهيد في الأبرار

استفانوس الجديد

والقديس الشهيد إيرينرخس

اللحن الأول

إنجيل السَحَر الرابع

الـــرســـالـــة (أفسس ٥: ٨–١٩)

الإنـــجـــيـــل (لوقا ١٨ : ١٨ – ٢٧)

+ الشهيدة بربارة

من الأعياد الأكثر شعبية لدى المؤمنين، لما يرافقه من احتفالات وتقـــاليد، عيد القديسة العظيمة في الشهيدات بربارة في الرابع من كانون الأول. كل ربـــة منزل تحرص أن صنع القطايف و«العوامات» المغموسة بالقطر رمـــزاً لاستشـــهاد بربارة وغمسها بدم الشهادة الذي سُفك منها حباً بالرب يسوع، وزرع القمح فـــي الأوعية يوم العيد لتنبت قبل عيد الميلاد وتوضع قرب شجرة الميلاد رمزاً لـــزرع بذرة الإيمان في القلوب، هذا الإيمان الذي زرعته بربارة في قلبه وحصدته وفيراً في ملكوت المسيح.

لا نعرف بالتدقيق زمن استشهاد القديسة بربارة أو مكان استشهادها. ويرجح أن تكون استشهدت بين العامين ٢٣٥ أو ٣١٠ في أحد بلاد الشرق. وتقليدنا المحلي يقول أنها كانت من مدينة بعلبك.

تتفق المصادر على أن والدها ديوسقورس كان وثنياً متشدداً وصاحب غنىً ومركز مرموق. ولكي يُبعد ابنته الجميلة بربارة عن عيون الرجال كي لا يختطفها أحدهم، أقفل عليها في برج كبير بناه لها في قصره، كما دفع إليها بعض الأصنام كي تعبدها. فترة الوحدة هذه كانت مناسبة لها للتأمل في الخلق والطبيعة فأدركت ضلال عبادة الوثن حتى أنها حطمت الأصنام التي وضعها لها والدها لتسجد لها. وأرسل الله من يبشرها بالمسيح وهي في البرج، فآمنت به ونذرت البتولية لكي لا تلتهي عن العريس السماوي،لذلك ولم يستطع والدها إقناعها بالزواج. وكانت تتألم لعدم إحساس والدها بالحقيقة وعماه بسبب سجوده للأصنام، وتصلي طالبة العون الإلهي.

قرر والدها بناء حمام خارج البرج، وأمر أن تفتح فيه نافذتان. إلا أن بربارة طلبت من البنائين أثناء غيابه فتح نافذة ثالثة. ولما سألها والدها عن سبب وجود النوافذ الثلاث أجابته: «إن النوافذ الثلاث تضيء كل إنسان آتٍ إلى العالم». قالت هذا ورسمت إشارة الصليب مع الأصابع الثلاثة قائلة: «الآب والإبن والروح القدس. بهذا النور تستنير الخليقة بأسرها عقلياً». غضب والدها وشهر سيفه لقتل ابنته إلا أنها استطاعت الهرب إلى جبل قريب. هناك سجدت وصلت إلى الله طالبة العون. وكما حصل مع الشهيدة تقلا من قبل، انفتحت صخرة كبيرة في الجبل ودخلت بربارة في الشق واختفت عن أنظار أبيها.

ظل والدها يبحث عنها إلى أن وجدها، فضربها بدون شفقة وجرها بشعرها إلى بيته حيث أقفل عليها واضعاً الحراس على بابها. ثم ذهب إلى الحاكم وأطلعه على أمر ابنته طالباً منه تعذيبها. أُحضرت بربارة أمام الحاكم، ولما رآها اندهش بجمالها وأشفق عليها وحاول تملقها إلا أنها رفضت التخلّي عن يسوع. هددها بالقتل فلم ينجح، بل قالت له: «أنا أقدم ذبيحة التسبيح لإلهي الذي صنع السماء والأرض والخليقة كلها. أما الآلهة التي تعبدها فهي من ذهب وفضة صنع أيدي الناس وشياطين الأمم». غضب الحاكم وأمر أن تضرب وأن تُحَّف جراحها بخرق من شعر لكي تزداد أوجاعها، ثم وضعها في السجن. في الليل ظهر لها السيد المسيح مشجعاً وواعداً إياها بأنه سوف يكون إلى جانبها دوماً، شفى جراحات

جسدها. وشهدت حالها هذه امرأة اسمها إليانا (يوليـــاني)، فتشـــجعت هـــي أيضـــاً ومجدت الله وقررت مواجهة كل العذابات من أجل المسيح ومحبته.

أُحضرت بربارة مجدداً أمام الحاكم فتعجب الحاكم لشفاء جراحـــها. وأخـــذ يقنعها بأن من شفاها هي الآلهة الوثنية، أما هي فأجابته بأن الذي شـــفاها هـــو «المسيح ابن الله الحي الذي لا تستطيع أن تنظر إليه لأن عينيك مثقلـــة بظـــلام الإلحاد». عندها أصدر الحاكم أمره بأن تُطعن برماح حديدية وتُحـــرق أعضاؤهـــا بمشاعل ويُضرب رأسها بالمطرقة. وكانت يولياني شاهدةً على هذه العذابات فراحة تبكي. رآها الحاكم وسأل عنها، ولما قيل له أنها أيضاً مسيحية أمر بـــأن تُعلـــق إلى جانب بربارة وأن يُمزق جلدها وتُحرق بالمشاعل أيضاً. أما يولياني فصلَّـــت إلى الرب أن يمنحها القوة للصمود إلى المنتهى. وأثناء تعذيبـــهما كـــانت بربـــارة تصلي «يا رب لا تطرحنا من قدام وجهك وروحك القـــدوس لا تنزعـــه منـــا» (مزمور ٥١:١١). وكان الرب حاضرا دائما لشفاء جراحاتهما.

أحضرت برباره مجددا إلى الحاكم فأيقن أنه لن يستطيع تغيير رأيها فـــأمر بقطع رأسها مع يولياني. أبى والدها إلا أن يقطع هو رأسها بنفســـه فأخذهـــا مـــع يولياني برفقة جلاد آخر إلى جبل قريب، وفي الطريق كـــانت بربـــارة ويوليـــاني كأنهما ذاهبتين إلى عرسهما. صلتا إلى الرب وسمعتا صوتا سماويا يشجعهما، ثـــم أحنتا رأسيهما وقبلتا الاستشهاد.

في طريق عودته إلى منزله، لقي والد بربارة عقابه إذ نزلت صاعقة مـــن السماء وأحرقته، كما سقطت صاعقة أخرى علـــى الحـــاكم. وحضـــر عـــدد مـــن المؤمنين وأخذوا جسدي الشهيدتين ودفنوهما بإكرام ومهابة قرب بعلبك.

يذكر البطريرك مكاريوس الزعيم (الإنطاكي القرن السابع عشر) أن جســـد الشهيدة بربارة نقل إلى القسطنطينية ثم إلى كييف فـــي روســـيا، عندمـــا أهـــدى الإمبراطور البيزنطي باسيليوس (١٠٢٥-٩٧٦) رفات الشهيدة بربارة إلـــى شـــقيقته في مناسبة زواجها من الأمير فلاديمير الذي نصر روســـيا. ويقـــول إنـــه شـــاهد الرفات هناك وتبرك بها وإن جسدها باق على حاله. فبشفاعة القديســـتين بربـــارة ويولياني اللهم ارحمنا وخلصنا آمين.

+ المسيح وُلد فمجدوه

فيما نحن نتهيأ لاستقبال ميلاد الرب نورد عظة ألقاها القديس غريغوريوس النزينزي، رئيس أساقفة القسطنطينية (القرن الرابع)، حول الميلاد والظهور:

«المسيح وُلد فمجدوه. المسيح أتى من السموات فاستقبلوه، المسيح على الأرض فارتفعوا. رتلي للرب أيتها الأرض كلها. لتجتمع السماء والأرض معاً: لتتهلل السموات ولتفرح الأرض، لأن الذي في السماء هو على الأرض الآن. المسيح وُلد بالجسد فتهللوا برعدة وفرح: برعدة بسبب خطاياكم وبفرح بسبب رجائكم. المسيح وُلد من عذراء. فعيشن كعذارى أيتها الأمهات لكي تكون أمهات المسيح. من لا يسجد له للذي هو منذ الابتداء؟ من لا يسجد له للذي هو المنتهى؟

الظلمة من الماضي، والنور قد صُنع... ليرَ الشعب الساكن في الظلمة نور المعرفة الكاملة العظيم. لقد مضت الأمور القديمة. انظروا، لقد تجددت كل الأشياء. الحرف يبتعد، والروح يأتي إلى الواجهة. الظلال تهرب لأن الحق أشرق عليها. اليوم يتحقق ملكيصادق، فالذي كان بدون أمٍ (كونه مولود من الآب قبل كل الدهور) اليوم يصبح بدون أب (كونه يولد من العذراء). لقد غُلب نظام الطبيعة، العالم العلوي امتلأ. صار المسيح حاكمه.

صفِّقوا بالأيدي أيها الشعوب، لأنه قد وُلد لنا ابن، وأُعطي لنا صبيٌ وسوف توضع الحكومة على عاتقه (كتفيه)... كما جاء في سفر اشعياء. فليصرخ يوحنا المعمدان: أعدوا طريق الرب! وأنا سوف أنادي عالياً بقوة هذا اليوم. الذي بدون جسد صار جسداً (تجسد)، ابن الله يصير ابن الإنسان . يسوع المسيح: هو نفسه أمس واليوم وإلى الأبد! فليتعثر أبناء إسرائيل الذين يطلبون آية، وليتكلم بالجهالات اليونانيون طالبوا الحكمة. وليتكلم الهراطقة حتى يوجعهم لسانهم، فإنهم سوف يؤمنون عندما يروه صاعداً إلى السموات. وإذا لم يؤمنوا في حينها، فسوف يؤمنون يوم مجيئه من السماء ليجلس للدينونة.

لندع هذا الأمر الآن ولنتكلم في الحاضر عن العيد المسمى الميلاد والظهور. وقد أُعطي هذان الاسمان لأن كليهما يخصان الأمر نفسه. لقد ظهر للبشر بالولادة. فمن جهة هو **الكائن**، كائن أزلياً من الكائن الأزلي (إله من إله)، فوق كل اعتبار وكلمة، لأن كلمة الله هو قبل كل كلمة. ومن جهة أخرى، لأجلنا **صار** (إنساناً)، ذاك، الذي يعطينا الوجود، لكي يرفعنا (أي لكي نتأله) بكلام آخر لكي

يستعيدنا بتجسده نحن الذين سقطنا من حالنا الجيدة بسبب شـــرنا. يُســمى العيــد الظهور للإشارة إلى «ظهور الله»، ويُسمى الميلاد للإشارة إلى مولده.

هذا هو عيدنا الحاضر، وهذا ما نحتفل به اليوم: مجيء الله إلى الإنســان، لكي نعود إلى الله أي نخلع الإنسان العتيق لنلبس الجديد. وكما متنا بآدم نحيــا بالمسيح، كوننا ولدنا مع المسيح وصُلبنا ودُفنا معه ونقوم معه.

لذلك، فلنعيِّد ليس على طريقة الاحتفالات الوثنية، بل بطريقة إلهية .ليــس حسب طريقة هذا العالم، لكن على طريقة العالم العلوي. ليس كأمر يخصنــا بــل كأمر يخصه هو الذي هو لنا، أو بالأحرى، سيدنا. ليس من ضعف بل للشــفاء. ليس للخلق بل لإعادة الخلق.

كيف يكون ذلك؟ دعونا لا نزين الشرفات والشــوارع، ولا نعقــد حلقــات الرقص. دعونا لا نُعيِّد بأعيننا، ولا نطرب أذاننا بالموســيقى ولا نعبــق أنوفنــا بالعطور، ولا ندنس الذوق ونؤذي الحس. هذه طرق تؤدي إلى الشر وهي مداخل الخطيئة... لندع كل هذه الأمور للوثنيين... ولنسعَ نحن الذين نعبد كلمــة الله، إذا كنا نبتغي بعض الرفاهية، أن نجدها في كلمة الله والشريعة والقصــص الكتابيــة، خاصة تلك التي تخبرنا عن العيد الحاضر لكي يكون فرحنا به هو الذي دعانــا لنكون معاً اليوم.

... الذي يمنح الغنى يفتقر، لأنه يلبس شقاوة جسدي وفقره لكي ألبس غنى ألوهته. الممتلئ يُفرغ ذاته، لأنه يفرغ ذاته من مجده لوقت قصير لكي أشــاركه في ملئه. ما أعظم عنى صلاحه وما أعظم هذا السر الذي حولــي! لقــد كنــت أشاركه **الصورة** ولم أحتفظ بها، والآن هو يأخذ جسدي لكــي يخلــص الصــورة ويجعل الجسد أزلي. يعطينا شركة ثانية (بالتجسد) أكثر روعة من الأولى (الخلــق) لأنه في الخلق أعطانا إمكانية الاشتراك بطبيعتــه الصالحــة، والآن فــي الميــلاد (التجسد) يلبس طبيعتنا الخاطئة. الميلاد هو نموذج العمل الإلهي، وهو يفوق كــل وصف في عيون كل الناس».

(القديس غريغوريوس النزينزي، عظة ٣٨)

+ خدمة الآخرين

ما الصعب والمؤلم أو المستحيل في قول الربّ: " بعْ ما عندك وأعطِه للمساكين "؟ لو أنه كلَّفك أن تحرث الأرض أو أن تخاطر في المتاجرة، وتتحمَّل ما يتبع ذلك من الجهود، لفهمتَ ما يعتريك من الحزن، ولكنه يعرُضُ عليك الحصول على السعادة الأبدية، بطريقة سهلة وبدون عمل أو عرَق، فلماذا لا تُسرُّ بسهولة الخلاص بدلاً من التحسُّر وتعريض نفسك لفقدان الأجر على عملك؟ فإذا كنت لم تقتل حقاً كما تقول، ولم تسرق، ولم تشهد زوراً، فإنك تجعل كل جهودك باطلة، حين لا تضيف الى ما يمكنه أن يفتح لك ملكوت الله. لو تقدّمَ إليك طبيب ليُصلح لك عضواً مريضاً من أعضائك، فإنك لا تتردّد، بل تقبل ذلك بطيبة خاطر، فلماذا تحزن وتزعل حين يتقدّم إليك طبيب النفوس وهو يريد أن يُصيَّرَك كاملاً بأن تُضيف إليك ما ينقصُكَ جوهريًّا؟ لا شكَّ أنك بعيد جداً عمَّا يقتضيه حبُّ القريب، وتشهد زوراً بأنك تحبه مثل نفسك. إنَّ ما يعرضه عليك الرب دليل قاطع على خلوّك من المحبة الحقيقية، لأنك لو كن حفظت حقاً منذ صغرك وصيَّة الحبِّ لقريبك، وساويتَ ما بينك وبين أخيك لما أمكن أن تكونَ لديك هذه الثورة الطائلة ! أنَّ الأهتمام بالفقراء يستدعي نفقات عظيمة، إذا أردنا أن ينال كل واحد منهم الضروري، وأن يستفيدَ جميع الناس من خيرات الأرض ويحصلوا على ما يَسُدَّ حاجاتهم. فمن يحب قريبه كنفسه لا ينبغي أن يكون عنده أكثر من أخيه، ومن الأكيد أنَّ عندك أملاكاً واسعة. فمن أين نَشأ هذا التفاوت، إلاَّ من إيثارك تمتُّعَك الشخصي على سعادة الآخرين؟ فكلَّما زِدتَ غنًى نقَصتَ حباً. لو أنك أحببت قريبك لكنت قد وزَّعت من زمان طويل جزءاً من أموالك. ولكنك متعلّق بهذه الخيور تعلقك بجزءٍ من روحك، ويؤلمك حرمانك منها كما يؤلمك قَطعُ عضو من أعضائك.

وإنك لتُخفي ما بقيَ من مالِك، بعد الإسراف، في خزائن من حديد، وتقول : المستقبل مجهول، ولا بدّ من التحصُّن مما يفاجيء من الضرورات ! صدَقتَ: ليس من المؤكد أنك تحتاج الى هذا المال، ولكن شيئاً آخر مؤكَد: هو خطيئتك. فإنك لمَّا لم يستطع أن تبذِّر ثروتك بالرغم من حماقاتك، أخفَيتها، وفي إخفاء ثروتك دفنت قلبك. لقد قال المسيح: " لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك". لهذا تثقل على الأغنياء وصايا الله وتبدو لهم الحياة كريهة إذا لم يُنفقوها بالتبذير. فشابّ الإنجيل الغني وأمثاله أشبه بمن أراد أن يزور مدينة، فقام بسفر شاق طويل في سبيل الوصول إليها، وما كاد يقف على بابها حتى أخذ منه الخمول مأخذه فعاد أدراجه، وقد خسر ثمرة جهده ولذَّة رؤيته تلك المحاسن التي قاسى ما قاسى من التعب لأجلها.

هذه صورة من يحفظون وصايا الله ويأبَون أن يُضَحُّوا في سبيل البائسين بشيء. إني لأعرِف كثيرين منهم.

بما يُعرف الطمع؟ يخرق الشريعة الإلهية إذ يفتكر الإنسان في نفسه قبل أن يفتكر في غيره، وذلك بحسب الشريعة القديمة لأنه قد كُتب: " أحبِبْ قريبك مثل نفسك" وبحسب شريعة الإنجيل إذ يُمسِكُ الإنسان لمنفعته الخاصة أكثر مما يحتاج إليه في يومه، لأنه كُتِب: " يا جاهل في هذا الليل تموت، وماذا يبقى لك من خيراتك؟" ومعنى ذلك أنَّ من يجمع لنفعه دون غيره ليس غنيًّا في نظر الله.

عندما يقول ربُّنا يسوع المسيح: " يستحقُّ أُجرتَه"، لم يكن يَعني أيًّا كان، لأنه يضيف إلى ما سبق: " مَن يعمل لمعاشه" (متى ١٠:١٠). والقديس بولس يوصينا بالشغل، وبعمل الخير بأيدينا، فالشغل فرضُ علينا. فلا واجب الصلاة ولا حُجَّة الراحة مما يعفينا من العمل المجهد، بل يحثُنا على المزيد من الكدِّ حتى يُقال عنَّا ما قيل عن القديس بولس: " قضى عمره في العمل والجهد محتملا السهر الطويل والجوع والعطش".

وليس الدافع الى واجب الشغل هذا حاجة جسمنا الى الراحة بل واجب المحبة الأخويّة. لأن الله يريد أن نعاونَ بتعبنا على بقاء مَن هم دوننا قوى، كما كان القديس بولس يفعل، كقوله في أعمال الرسل: " لقد بيَّنتُ لكم بطرُق مختلفة كيف كنت أشتغل بيدي لأُسعِف الفقراء" وكتابته الى أهل أفسس: "اشتغلوا حتى تستطيعوا أن تساعدوا المحتاجين".

إذا فعلتم ذلك استحققتم أن تسمعوا المسيح يقول لكم ساعة الموت: " تعالوا يا مباركي أبي، رثوا الملُك المُعدَّ لكم لأني جعتُ فأطعمتموني، وعطشت فسقيتموني٠٠٠"

القديس باسيليوس الكبير